



من أساطير الاغريق

٢- خرافة جاسون

للاستاذ دريني خشبة

—>>><<<—

مساكين هؤلاء الأرجونوت (١)

لقد كانت رحلة شاقة مضطربة بالمتاعب ، مليئة بالأشجان ، في بحر لجى وأمواج كالألأل ، ظلمات بعضها فوق بعض ، وأهوال جسام يأخذ بعضها برقاب بعض ، وطريق كله سَعَالٍ (٢) وأغوال لقد لقي الأبطال الصناديد من أمرهم رهقاً أى رهق ... فلقد أرسوا مرة بأرض شجراء باسقة الدوح ، نما أيكها واستطال ، وغالطت جذوعها واستوت ، فبدا لهرقل أن يصطحب غلامه هيلاس وينطلق في القابة يقطع أغصاناً تصلح لأن يصنع منها مجاذيف للأرجو ، فأوغلا ... وكانت الطريق ملتوية مُضلة ... فلما أن قطعاً من الأغصان شيئاً كثيراً ، أصاب هرقل ظمأ شديداً لم يصبر عليه ، فأمر هيلاس أن ينطلق فيملاً جرة الماء التي كانت معهم من نبع قريب كانا يسمان خريره بتلاشي كالصدى في سكون القابة ... وذهب هيلاس ، وجلس هرقل ينتظره ... ولكن وقتاً كافياً طويلاً مضى قبل أن يعود الفتى ... ثم مضى من الوقت ساعة أو نحوها ... ثم ساعتان ... ثم أكثر من ذلك ... ثم أكثر ... ماذا ترى ما الذى عوق هيلاس ؟ أوأه ! لقد كان هيلاس أجمل شباب الدنيا في ذلك الزمن ، ولقد كان له جسم سمهري مشوق ، وصدر رحب أخيل ، ووجه تميز فيه بداوات الرجولة والقوة بقسبات الفتنة والجمال ، وعينان يترقرق

في ريقهما لون من السحر لا يعرفه إلا المندارى ، ولا تحسه إلا قلوب الحسان ... وشفتان إن كانتا لرجل ، فقد سرقتهما له الطبيعة الفتانة من فم غادة ... وجبين متألل وضاح ، لمّاح كإشراق الشمس في مولد الصباح ... تبارك الله ما كان أنسى وما كان أنسى ، وما كان أجمل هيلاس !!

ذهب يعلأ الجرة ... وما كاد ينثنى ليضرب بها الماء ، حتى رآه عرائسه النيد ، الخرد الأمايد ، فشغفوا وامتلأ قلوبهن ، وبرزن من القاع ليسكرن بجماله ، وينهان من حسنه ، وليقسمن بسيد الأولب ما هذا بشراً إن هذا إلا ملاك كريم !! واقتربن من مكانه ، ثم لم يقوين على البعد فاقتربن أكثر ، ثم تأجج الهوى في فؤاد إحداهن ، وهي أجملهن ، إن كان فيهن من هي أجمل من أختها ، ففتفت به ، فلم يجب ، فجذبته من ذراعه جذبة نزل بها إلى الماء

— ماذا بالله عليك يا عروس ؟

— تمش معنا !

— أعيش ممكن في الماء وأنا بشر ؟

— لن تكون بشراً بعد اليوم ، بل تكون إلهاً كريماً

— وأنى لى هذا وأنا غلام هرقل ومولاه ، وهو ظمى إلى

جرعة من مائكن تشنى جوادته ؟

— ومن أذن لهرقل أن يرسو بأرضنا ؟ إذن هذا عقابه !

تمال ! سيمنحك الخلود سيد الأولب !

وجذبته إلى القاع ... ولكنه لم يفرق ... وهو يعيش إلى اليوم مع هذا السرب من الحور العين لا يخدم أحداً ، ولا يجوع ولا يظلم !

ونهض هرقل يقص أثر فتاه ، حتى إذا انتهى إلى النبع ،

ووجد الآثار هابطة إلى الماء ، إلى غير عود ، صرخ صرخة

(١) المسافرون في السفينة (أرجو)

(٢) جمع سعلات أو سلاء وهي النول أو ساحة الجن

من خدش واحد تحده يديهما ، بل هجما عليها هجوما ذريعا
وأخذا يسقطان منها عددا كبيرا كان يهوى فوق الأرض
فيلطخها بدماء حارة فائرة ... وكلما هبطت واحدة طفقت تشكو
وتبث بلسان يوناني مبين ... ثم فرت بقية الطير ... لكن
ملكها حطت بمكان قريب من الملك وهتفت به كي يأمر بوقف
الملحمة حتى تدعو بعض جندها لنقل جثث القتلى ... بيد أن
الملك رفض طلبها حتى تقاسمه أغلظ الأقسام وأوكدها أنها
لا تعود إلى الاعتداء عليه أبدا ، ولا تعود إلى زيارة تراقيا كلها
أبد الحياة ... فقاسمته ملكة الطير ، فأشار إلى ولدي بوريس
فأغمتا حساميها ، وذهبت الملكة وعادت بعد قليل في شرذمة
من جندها ، وبعد أن ذرفت من دموعها على قتلاها حملتها وذهبت
إلى غير عود (١) ... وبث قسمها ، فلم تر تراقيا بعد هذا أبدا .
وشكر الملك لولدي بوريس ، وعرض أن يستوزرها ، فرفضها
شاكرين ، ليصحبها جاسون

وكأنما ذاع نبا المهزيمة في عالم الطير فهبت جبارته تأخذ بشار
المساريز ؛ فإنه ما كادت الأرجو تبعد عن شيطان تراقيا ،
حتى رأى راكبوها سربا كبيرا من البزاة والنسور البواشق
يقبل من علو كأنما تفتحت عنه أبواب السماء ، ثم لا يفتأ يضرب
المواء بخواف من نحاس تلمع في أشعة الشمس كالذهب ؛ حتى
إذا كان فوق الأرجو طفق بقذف راكبها بمجارة مسومة من
سجل ألحقت بهم أذى كبيرا ... ولم تنفع معها سيوفهم ولا
قسيم شينا ، فاخبت كل كوكبة منهم في قمرتها ، وخلا
جاسون إلى عصاه السحرية يستشيرها ماذا يصنع لينجو بقيله من
هذه الطير ، فتكلم الرأس العجيب فأشار بأن يضرب الجنود
بأغماد سيوفهم على دروعهم ضربا شديدا فيحدث صوتا تنزعج
الطير منه ، وتفر مروعة إلى غير عود ... ودعا جاسون جنوده
ففعلوا كما أشارت العصا ، وفرت الطير ذاهلة ممزقة في رحب السماء

وحاقت بهم كوارث أخرى لاحصر لها ... ثم اقتربوا من
برزخ سميلجيدز الذي ليس لساغر إلى مملكة كونجليس سبيل

(١) تعرف هذه الطيور في البيولوجيا باسم هاربيز Harpies وروى
أنها قت نفسها في جزيرة ستروفيدي .

تجاوبت أسداؤها في أركان النابة ، ثم جلس ساعة على حفاقي
القبرة التي ابتلت هيلاس ينشج ويكي ... وأقسم لا يدوقن من
ماثها قطرة ، وأقسم كذلك لا يصحب الأرجو في هذا السفر ..
وعاد أدراجه ، بعد رحلة طويلة قطعها على قدميه إلى أرض
الوطن ، وعاش حياته الطويلة المقاحة لا يفتأ يذكر هيلاس ،
ولا يفتأ يكي على هيلاس !

وأرست الأرجو في شاطيء تراقيا ، ونزل جاسون في نفر
من رجاله يمتارون ، فعملوا أن ملكا أعمى يقال له رنسيوس ،
شديد البؤس ، طويل الشقاء ، يحكم هذه المملكة ... ولم يكن
عماه وذهاب بصره علة شقائه فحسب ، بل كان ذلك بسبب
طيور غريبة أخلق ، لها جسم الطير وريشه ونغالبه ، ورأس
الانسان ولؤمه وخبث طباعه ... كانت هذه الطيور تنزل
بساحة القصر الملكي ، ثم تهجم على غرفة الملك كلما حان موعد
الطعام ، فتلهم غذاءه ، فلا تبقى ولا تذر . وكان الملك في أكثر
الأحيان لا يجد لقمة واحدة يتبلغ بها . لأن هذه الطيور لم يكن
من دأبها أن تبقى على شيء ... حتى على الفئات ... ولم يكن يرداها
عن قصر الملك وعن غرفة غذائه خاصة شيء مطلقا ... فلقد
كانت تخمش وجوه الجنود وتمزق جلودهم كلما حاولوا صدبا
عن بيت مولاهم ؛ وكانت تفلت من سيوفهم وتمزق من سهامهم
بخنفة تخير الأبواب ، ولم يحدث مرة أن أصاب أحد الجنود منها
غرضا ، حتى جن جنون الملك وتضاعفت بلواه ، وجار بالشكوى
إلى آلهة السماء

ودهش جاسون ، وذهب بالقصة إلى رفاقه الأرجونوت ،
فتقدم إليه البطلان الضرغامتان ، ولدا بوريس ، يتحران أن
يذهبا معه إلى الملك المسكين فيمرضا عليه حربا عوانا يشبان
نيرانها على هذه الطيور ، فاما أن يتم لها النصر عليها ، وإما أن تكون
لها الكرة عليهما ... وصادف الاقتراح هوى في نفس جاسون
فانطلق معهما إلى الملك الذي هس لها وبش ، وفرح بما عرضاه
فرحا شديدا ... فلما حان موعد النداء ، جلس الملك وضيافه
— وكان جاسون قد عاد إلى السفينة — إلى المائدة . ثم لم تمض
لحظات حتى أقبلت الطيور ترنق فوقهم وتداول ، فوق البطلان
وامتشقا سيفيهما ، فلما هبطت ناوشاها مناوشة عنيفة ، ولم يمكنها

— عزّ نصر مولاي ، لقد تجشمتا مشاق هذه السّفرة في سبيل الفروة الذهبية التي يفتن بها ملك الملوك ، لأنه كُنَى إلى أنها كانت من تراث آبائي ... ولا أدري كيف حصل عليها السيد بعد إذ أفلتت من كنوزنا

وفهمه الملك ملء شذقيه كالساخر السهرزي ، ثم ربت على كتف جاسون وقال :

— أي بني ! أبتى على شبابك الغضب ، وجمالك الفيتان ، وعلى شباب هذه النخبة أولى القوة والفتوة الذين معك ... ! أي فروة ذهبية يا بني تبنتني ؟ وتراث آبائك من ؟! لقد ذبح فركسوس الكباش بيديه أمام عيني ، وسلخه بين يدي ، ونحى باللحم والحوايا للآلهة ، ثم أهدي إلى الفروة الذهبية التي تعدل كنوز الدنيا بأسرها ! فقيم إذن تجشمتك تلك المشاق ، وفيهم مجازفتك بالسفر بين سحرتي سمبلجيدر ؟! وفيهم كل تلك المهاوى والممالك ؟! عد يا بني إلى بلادك فهو خير لك ، وأبقى على حياتك ، وانهم بمحض أمك الدافئ فهو أرحب لك من ميدان كله ذؤبان وغيلان ، ومنايا تثير الأشجان والأحزان !

وتبسم جاسون وتثبت بما سأل الملك ، فأخذ إيتيس يعظه وينصحه ، فلما رأى تصميمه واستمساكه ، قال له :

— « لك إذن ما طلبت يا بني ، ولكن اسمع ، واصنع إلى ! إن أمامك مخاطر كنت أوثر ألا تلقى بنفسك في تهلكتها ، ولكن ما دمت قد غررتك الأمانى ، وازدهتك هذه النخبة من أبطال بني جلدتك ، فاذهب إذن ، وحاول ما استطعت أن تلجم عجلى فلكان الهائلين اللذين يتقذف الذهب من منخريهما ، ويفتكان بكل من إقرب منهما ؛ ثم حاول بعد ذلك أن تحرث بهما الأرض الجبُوب^(١) التي تقدست باسم مارس ، فإذا فعلت فازرع ما حرثت بأنياب تنين كما فعل قدموس بأني طيبة ، فانك لا تلبث أن ترى الأرض تبت جيلا من المردّة مقنمين في الحديد بلاعبونك بأسنة الرماح ، فإذا قدرت عليهم فإن عليك أن تقتل التنين الهائل الذي يحرس الفروة الذهبية ، فإذا فعلت ، ولا أحسبك تفعل ، فإن الفروة لك ، كيزاً ليس كمثل كيز ، وذخيرة من الذهب

غيره ... وهو مضيق رهيب يصل ماء بحرين وعلى كل من عدّوتيه صخرة هائلة ، فأتزال الصخرتان تنطبقان وتنفرجان ، بحيث تسحقان كل شيء يحصل بينهما فيصيرانه هباء عفاء كأن لم يكن من قبل ... وكأنت من سفينة جازف ملاحوها بالمرور بينهما ، فخطمتهم وعفت على آثارهم ... ولم يدر جاسون ماذا يصنع ، وجلس رفاقه يُقبلون الأكف على ما أنفقوا في غاظرتهم هذه ، وظلوا ينظرون إلى الصخرتين ساعات وساعات وهما ترتطبان وتبتندان ، وكلما سمعوا قصيفها يجلجل في الآفاق جعلوا أصابعهم في آذانهم حذر النشبة وتقيّة من الصمم ... وخلا جاسون إلى عصا جونو يستوحيا ماذا يفعل ، فأشار بأن يطلق جاسون حمامة بين الصخرتين حين تنفرجان ، ويرى هل تمرق قبل أن تنطبقا عليها ، ثم يرى ، هل يستطيع أن يعرق ملاحوه بسفينتهم بمثل سرعة هذه الحمامة ... ؟ ودعا جاسون رجاله يستشيرهم ، ثم أطلقوا الحمامة البيضاء كما أشارت العصا ، وكلهم كان عجبهم شديداً حين رأوها تفلت من بين الصخرتين إلا ريشة واحدة انزعرت من ذنبها فصارت هباء ثره الهواء ، واستمدوا للقاحه ، وطفقوا يقيسون مسافة ما بين البحرين في البحر الذي هم فيه ، ثم يطلقون حمامة كالتى أطلقوا ، بحيث يعملون مجاذيفهم حين تنطلق في الجو ... وأعادوا التجربة مثنى وثلاث ورباع ، حتى وثقوا من قدرتهم على قطع المسافة في مثل البرهة التي قطعها فيها حمامتهم الأولى ... ودفعوا سفينتهم إلى أول المضيق ، وانتظروا حتى أوشكت الصخرتان أن تنفرجا ، ثم أعملوا مجاذيفهم بأذرع مستبسة ، وأرواح برتعد فرقا من الموت في أبدانها ، فرقت السفينة كما يعرق السهم عن سية القوس ... واحربا ! لقد استطاعوا أن يفلتوا بفلكهم ، وإن حطمت الصخرتان سكانها ، كما حطمتا ريشة ذيل الحمامة من قبل ؟!

وما كادوا ينجون من هذه الموتة المحققة ، حتى انسدحوا في الفلك يلهثون ويتنفسون ، ويهني بعضهم بعضاً ...

وبلغوا كورنيليس بعد عناء وبعد جهد ، ومثلوا بين يدي إيتيس ملكها الجبار ، فسلم جاسون بسلام الملوك ، ثم سئل من طلبته فقال :